الأهرام

المصدر :
التاريخ :

إذا الشيشان أرادوا الحياة ٢

المغول يعتنقون الإسلام على أراضى الشيشان

شاعر روسيا العظيم «الكسندر بوشكين» لم يخف انبهاره الشديد بشمال القوقاز وبشعوبه، بينما ظل حكام روسيا تتنازعهم مشاعر الكراهية والحب تجاه القوقاز..

❐ «القوقاز» أو «القفقاس» كما كان العرب يسمونه، منطقة شديدة الحيوية الاستراتيجية حيث تشكل مرتفعاتها الحد الفاصل الطبيعى بين آسيا وأوروبا، وبامتدادها على الساحل الغربى لبحر قزوين (أو الخزر) فى الشمال الشرقى منها، تعتبر من أهم المنافذ الطبيعية على البحر للاتحاد الروسى اليوم، وللاتحاد السوفيتى فى السابق، وهى أيضاً منطقة غنية بالموارد الطبيعية بالإضافة إلى أنها قد تصبح منطقة رئيسية لخط أنابيب البترول إلى البحر.

❐ «شيشنيا» هى إحدى مقاطعات القوقاز وهى جبهة حدودية لروسيا، لكن شعبها لم يوافق طيلة تاريخه على أن يصبح نسيجاً روسياً، فالشيشان أو «الشاشان» أو «شعب الشاش» كان أحد شعوب منطقة «داغستان» فى القوقاز، والتى انحسرت ليطلق اسم داغستان اليوم على إحدى الجمهوريات الروسية المتاخمة لـ «شيشنيا».

■ داغستان القديمة، دخلتها جيوش الفتح الإسلامى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، لكنها قاومت مقاومة عنيفة، فشعوبها متمرسة جبلية واضطرت الجيوش الإسلامية لمعاودة فتحها مراراً، حتى لانت لجيوش مسلمة، أخى الخليفة هشام بن عبد الملك، الأموى، فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى)! حكمها الأمويون ثم العباسيون، واقتحمها المغول من الشرق، وحاولوا تدمير حضارتها التى أصبحت شديدة العراقة والإبداع حتى خرج منها مشاهير الفقهاء والمفكرين والعلماء المسلمين وليس آخرهم «البخارى» صاحب الحديث الشهير.

■ تأصل الدين الإسلامى فى هذه الشعوب القفقاسية أدى إلى أن يسلم المغول، فى جيلهم السابع، فى حكمهم للبلاد، فكان أن أصبح هؤلاء المغول حماة الحضارة الإسلامية فيها فأنشئوا أجمل المعمار الإسلامى والمساجد والمدن.

❐ فى عام (١٥٧٨) – أى فى القرن السادس عشر – دخل العثمانيون منطقة القفقاس، والداغستان وورثوا بعض الخانات المغولية، لكن الداغستانيين، قاموا بثورتهم، التى تعتبر إحدى أكبر الثورات فى المنطقة، عام (١٦٤٠) وأعلنوا (إمارة داغستانية) مستقلة بزعامة الأمير «حسن خان»!..

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

□ فى ذلك الوقت كان الخلاف شديداً على القفقاس بين الدولة الصفوية الشيعية فى إيران، وبين دولة آل عثمان السنية الطورانية، الناطقة بالتركية، و صل آنذاك «بطرس الأكبر» الزعيم الروسى الذى أسس الإمبراطورية الروسية، بجيوشه إلى الداغستان عام (١٧٢٢) وفرض السيطرة الروسية، حيث كانت الإمبراطورية العثمانية مشغولة بفتوحاتها فى وسط أوروبا، فاحتلت اليونان والبرتغال ووصلت إلى أبواب النمسا.

□ رفض الداغستانيون- وبينهم الشاشان- الهزيمة أمام الروس فاستغاثوا بالدولة الصفوية فى إيران، فى الجنوب وحافظوا على استقلالهم عن الروس، لكنهم اضطروا للانضواء تحت الحكم الروسى، بعد هزيمة الروس للدولة الصفوية فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٦).

■■كل الدراسات التى تمت حول منطقة القوفاز أو القفقاس، تتفق عل أن الإسلام انتعش هناك وظل باقيا برغم ضراوة الأحداث، بفضل مايسمى بـ (الإسلام الشعبى)! ، وهو يعتمد كثيراً على التلقين والحكايات وبعض الشعائر الموروثة، فكان للشق الروحى فى الإسلام تأثير مدهش على اتباعه، فنشأ ما يسمى بـ (الصوفية الشعبية) وأصبح لرجال الصوفية المسلمين مقام لا ينازعهم فيه أحد، واشتهرت الطرق الصوفية، وأهمها النقشبندية، نسبة إلى الإمام محمد البخارى النقشبندى (١٣١٧- ١٣٨٨) وهو أول من أسس الطريق النقشبندية هناك وقبره موجود فى مدينة بخارى (فى أوزبكستان اليوم) ويحج إليه الزوار من أقاصى الصين.

□□ انسحب الشاشان مع سواهم فى الداغستان من المقاومة المسلحة والمواجهة العسكرية، وتحولت مقاومتهم إلى حركات سرية انتعشت فى الزوايا والتكايا الصوفية والحضرات، بين اتباع الطرق الصوفية، فبرز الإمام، الشيخ «شامل» الشهير، من اتباع الطريقة النقشبندية، وجمع حوله اتباعه، ليقوم بأول ثورة شعبية حاملة للسلاح، ولتستمر الثورة حوالى (٣٠) عاما.

□ والإمام شامل الذى ظل حتى اليوم أسطورة البطولة الشاشانية، كتب إلى الدولة العثمانية يستنجد بها قائلا: «لقد خارت قوانا ونحن من رعاياكم، فانجدونا»!..

ولما لم ينجده العثمانيون الذين كانوا آنذاك قد بدأوا يعانون من مشاكل صعبة مع البريطانيين والروس، كتب إلى الملكة «فيكتوريا» ملكة بريطانيا العظمى، طالباً العون الذى لم يأت!..

□ وتستمر الثورة بأتباع الإمام شامل الذى أصبح مجرد اسمه رمزاً أسطورياً للجهاد والبسالة والصمود الشيشانى- الداغستانى حتى ألقى القبض عليه ونفى إلى الآستانة عام ١٨٥١، ليرحل بعدها إلى المدينة المنورة حتى مات ودفن فى البقيع!..

□ لكن الشعب تابع الثورة، بعد أن قصم ظهره نفى وموت الإمام، ومقتل واستشهاد معظم اتباع الطريقة النقشبندية حتى عام ١٨٨٧.

□ ورغم شعار الروس «سنبيد الشاشان» فإن هذا الشعب استمر فى الثورة.. وإلى عدد قادم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية